

كلية: الآداب جامعة الأنبار

القسم او الفرع: اللغة العربية

المرحلة: الرابعة

أستاذ المادة: د. احمد عبدالعزيز

اسم المادة بالغة العربية: النثر العربي الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية: Modern Arabic prose

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: محاضرة محمد عبده واحمد امين

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية: Mohammed Abduh and Ahmed Ameen

# محتوى المحاضرة الأولى

#### محمد عبده « ۱۹۰۹ - ۱۹۰۵ م »

ولد محمد عبده في قرية على ضفاف الدلتا المصرية ، في عائلة تملك بعض الثراء والمكانة الاجتماعية ، لذلك استطاع أن يتعلم القراءة والكتابة على أيدي معلمين أحضروا لتعليمه في المنزل ، وحفظ على أيديهم القرآن الكريم وتعلم ركوب الخيل والفروسية . وعندما بلغ الثالثة عشر من العمر سافر إلى طنطا للدراسة في الجامع الأحمدي ، أحد مراكز الثقافة الدينية المهمة في مصر آنذاك ، لكنه لم يفد من ذلك شيئا بسبب عقم التعليم ، رجع إلى قريته وتزوج ، غير أن أباه طلب إليه أن يستأنف تعليمه ، فسافر بدلا من طنطا إلى أخوال أبيه حيث وجد بينهم شيخا متصوفا وهو الشيخ درويش ، ذا أفق فكري واسع وفهم صحيح للدين ، فأخذ يستمع إليه ويتلقى منه التوجيه والإرشاد حتى جعله أستاذه الأول .

لقد أثر فيه هذا الشيخ تأثيرا كبيرا وجعل منه شخصية جديدة ترى وتفهم الحياة بمنظار جديد ، حتى صار يحس إحساسا عميقا كأن عليه رسالة في الحياة : أن يهدي الناس إلى الطريق المستقيم . قال محمد بن عبده في سيرته عن خاله هذا « لم أجد إماما يرشدني إلى ما وجهت إلي نفسي إلا ذاك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد وهو مفتاح سعادتي أن كانت لي سعادة في هذه الدنيا ، وهو الذي ردّ لي ما كان غاب من غريزتي وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في فطرتي ... » .

عاد محمد عبده إلى طنطا وبعد إتمام دروسه فيها التحق بالأزهر حيث أعجب بشيخ كان يدرس الفلسفة والمنطق هو الشيخ حسن الطويل.

في عام ١٨٧١ م زار مصر جمال الدين الأفغاني داعيا إلى نهضة الاسلام ومحاربة الاستعمار ، فالتف حوله محمد عبده واعجب اعجابا شديدا بأفكاره ، وأخذ تحت تأثيره ينشر مقالات في جريدة « الاهرام » . وفي عام ١٨٧٧ م نال شهادة العالمية من الأزهر وأخذ يدرس في الأزهر و « دار العلوم » و « مدرسة الألسن » ، واهتم في تدريسه بـ « مقدمة ابن خلدون » و « تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه وكتاب غيزو « تاريخ تمدن الممالك الأوربية » .

وحين اخرج الأفغاني من مصر على أثر دعواته الخطيرة وآرائه الجريئة ، أقيل محمد عبده من وظيفته بسب اتفاقه معه في الرأي ، لكن بعد حين ، يسند إليه تحرير « الوقائع المصرية » بوساطة أحد المسؤولين ، فينهض بها مع طائفة من تلاميذه ، إذ لم يقف بها عند تحرير الوقائع والأخبار الحكومية بل جعلها صحيفة ثقافية واصلاحية ، تمارس النقد وتدعو إلى الحرية والأعمال الخيرية وتطهير الاسلام من البدع والخرافات وقيام حكومة عادلة .

في هذه الأثناء تقوم ثورة أحمد عرابي فيعارضها محمد عبده في البداية ، لأنه كان يكره أحمد عرابي ولا يراه مؤهلا ليكون زعيم أمة ، وفي الوقت ذاته كان يعتقد ان الأمة لا تزال غير قادرة على أن تحكم نفسها . لكنه حين تدخل الأجانب لإخماد الثورة ، انظم إليها وراح يأخذ المواثيق ويحرر بيانات الثورة للشعب وللدول ، ويحض قومه للتجنيد ويحمسهم للقتال ، غير ان الثورة تخفق فيسجن محمد عبده مئة يوم ثم ينفي إلى بيروت

وفي بيروت يلتف حوله العلماء والأدباء ، ويدرس في المدرسة السلطانية ، إلا إن مقامه لا يطول فيها غذ يطلب إليه أستاذه جمال الدين الأفغاني أن يلحق به في باريس لإصدار مجلة « العروة الوثقى » فيلبي الدعوة ويحرر في المجلة مقالات تفيض ثورة وغضبا على أعداء مصر والعالم الإسلامي ، ويرجع ثانية إلى بيروت بعد إغلاق المجلة ويكتب فيها بعض الكتب مثل رسالة التوحيد ، وشرح نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان ، ويفسر القرآن تفسيرا جديدا من غير أن يتقيد بتفسير خاص .

يظل في بيروت ست سنوات ثم يعود إلى مصر بعد أن يعفى عنه بشفاعة صديقه « رياض باشا » ولا يستطيع العودة إلى التدريس ولكنه يعين قاضيا ثم مستشارا في محكمة الاستئناف ويتعلم الفرنسية لفهم القوانين الأجنبية ويترجم منها بعض الكتب . كما يسعى إلى العمل للنهوض بالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية وهو ما يجعله يسالم المسؤولين ، ويهادن الانكليز ويستعين بهم لتحقيق ما يريد مما يجعل الأفغاني يحنق عليه ويراه متنكرا لمبادئه . لكنه يظل متمسكا بسياسة التقرب من الانكليز والاستعانة بهم حتى آخر حياته . ويعين مفتيا للديار المصرية في ١٨٩٩ م وبظل في هذه الوظيفة حتى وفاته سنة ١٩٠٥ .

### آراؤه:

يُعد محمد عبده أكبر مصلح ديني عرفته مصر والعالم العربي ، فقد سعى إلى نهضة الإسلام والمسلمين وتخليص الدين من الأوهام والخرافات وبحث فيه بحثا حرا مثل بحث المعتزلة القديم ، فباب الاجتهاد فيه لم يغلق . ولا ضير أبدا في أن تبحث فيه وفي أصوله في ضوء الفكر الحديث . لقد أثبت في مقالاته وأبحاثه ان الإسلام دين عالمي وحي وان لا يتعارض مع المدنية الحديثة ، وردّ ردودا قوية على بعض المفكرين من الأوربيين الذين هاجموا الإسلام واتهموه بأنه لا يتلاءم والعصر الحديث .

كان هدف محمد عبده في جميع أعماله وكتاباته سد الثغرة القائمة في المجتمع الإسلامي ، بغية تقوية جذوره الخلفية ، ولبلوغ هذا الهدف رسم طريقا واحدة هي عدم الرجوع إلى الماضي وإيقاف مجرى التطور الذي بدأ في مصر منذ حكم محمد علي بل الاعتراف الحاجة إلى التغيير ، وربط هذا التغيير بمبادئ الإسلام ، وذلك بإثبات ان هذا التغيير ليس مما يجيزه الإسلام حسب ، بل إنما هو من مستلزماته الضرورية إذا ما فهم على حقيقته .

اثبت محمد عبده ان الإسلام ينطوي على الأسس العقلية والخلقية التي أراد الفلاسفة الأوربيون استنباطها من العلوم الحديثة وهو ما يجعل الإسلام يصبح أساسا للحياة الحديثة . وهو لم يقصد بتأكيده ان الإسلام صالح لان يكون الأساس الخلقي لمجتمع حديث وتقدمي ، إلى القول بأن الإسلام يحبذ كل ما كان يعمل باسم التقدم ، وبأن غاية العلماء الجدد هي مجرد إضفاء طابع شرعي على الأمر الواقع بل قصد إلى خلاف ذلك ، فالإسلام – كما فهمه – مبدأ ردع من شأنه أن يمكن المسلمين من التمييز بين الصالح والطالح من مختلف وجوه التغيير الحاصل . لذلك كانت المهمة التي اضطلع بها ذات شقين : أولا إعادة ماهية الإسلام الحقيقي وثانيا النظر في مقتضياته بالنسبة إلى المجتمع الحديث . يقول محمد عبده في سيرته محددا هذين الهدفين « الأول تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله في معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني ، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم باعثا على البحث في أسرار الكون .... أما الأمر الثاني فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير ... » .

#### مقالاته:

لعل محمد عبده واحد من أهم رواد المقالة العربية الحديثة ، فقد كتب مجموعة كبيرة من المقالات ، ضمّنها آراءه وتعاليمه في الدين والسياسة والاجتماع . ومقالاته عموما مرت بمرحلتين :

أما المرحلة الأولى فتمثلها المقالات الأولى التي نشرها في « الأهرام » في ١٨٧٦ م وتتميز بغلبة السجع عليها ، وخلوها من الأفكار والنظرات العميقة بسبب ثقافته المحدودة في بداية حياته الثقافية . وفي الوقت ذاته نجده يقدم لموضوعاته في المقالات بمقدمات طويلة تجهد نفس القارئ . نلمح هذه الخصائص في هذه القطعة من مقالاته « لما انتشر نوع الإنسان في أقطار الأرض وبعد ما بينهم في الطول والعرض مع ما بينهم من المعاملات ومواثيق المعاقدات احتاجوا إلى التخاطب في شؤونهم مع تنائي أمكنتهم وتباعد أوطانهم فكان لسان المرسل إذا ذاك لسان البريد ، وما يدرك هل حفظ ما يبدئ المرسل وما يعيد ، وإن حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد القريب أو يقرب البعيد ، فكم من رسول أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مغلول أحر تخمد الأنفاس ونعمر الأرماس ومع ذلك كان خلاف المرام ، ورمية من غير رام . فالتجئوا إلى استعمال رقم القلم ووكلوا الأمر إليه فيما به يتكلم » .

وأما المرحلة الثانية فتمثلها المقالات التي كتبها بعد أن اكتملت ثقافته ونضجت شخصيته وزادت خبرته في مختلف المجالات إذ أخذ يطلع على الكتب العربية القديمة مثل كتاب « مقدمة ابن خلدون » الذي كان يدرسه في دار العلوم ، فوجد فيه وفي غيره من الكتب لغة سهلة لا تكلف فيها ولا تعقيد ، ووجد الأسلوب نفسه في آثار الفكر الأوربي التي صار يقرؤها مترجمة ، وفيما بعد أخذ يقرؤها في لغاتها الأصلية حين تعلم الفرنسية . كما اتصل بجمال الدين الأفغاني فرأى عنده قدرة على تصريف المعاني وابتداع أفكار جديدة . لهذا كله تلخص أسلوبه من السجع وكل ضروب التكلف والتعقيد فغدا أسلوبا مرسلا وواضحا وصارت مقالاته تثرى فكريا فتعبر خير تعبير عن مختلف المسائل الفكرية وتتلخص في الوقت عينه من المقدمات الطوبلة التي وجدناها عنده في مقالات المرحلة الأولى .

وهو «لم يكتف بذلك ، بل أخذ يعمل على نشر هذا الأسلوب بين تلاميذه الذين كانوا يكتبون معه من أمثال سعد زغلول ، كما أخذ يشجع الصحف على احتذائه والضرب على قوالبه ، وفي الوقت نفسه كانوا ينتقد من يكتبون فيها ، ويطلب إلى أصحابها أن يختاروا من يحسن الكتابة بالأسلوب الجديد . وفتح في الوقائع صفحات أدبية واجتماعية وسياسية يكتب فيها هو وتلاميذه ، وكأنه يريد أن يضع بين الكتاب النموذج الأدبي الجديد الذي ينبغي أن يتوفروا عليه ... فتحريره الوقائع كان خطوة كبيرة في سبيل الرقي بلغة المخاطبات الحكومية وبلغة الصحافة فقد خرج بها من أسلوب السجع والفواصل وأنواع الجناس والبديع إلى أسلوب مرسل حر ، لا يضيق بالمعاني ولا يضيق به القراء » .

وعلى الجملة نضجت المقالة وتهذبت عند محمد عبده ، إذ صارت الموضوعات فيها ترتب ترتيبا منطقيا وكثر فيها استعمال الأقيسة والبراهين وتغليب الفكرة على شتى وجوهها وقوي أسلوبها فبلغ درجة عظيمة من المتانة . تجلى كل ذلك في مقالات « الوقائع المصرية » . وإليك مثالا على ذلك من مقالة عنوانها « العدالة والعلم » : هذان الأساسان الجليلان « أعني العدالة والعلم » متلازمان في عالم الوجود ، متى سبق أحدهما إلى بلاد تبعه الآخر على الأثر ، ومتى فارق أحد منهما جهة تعلق الثاني بغباره ، فلا يكاد يرفع قدمه أو يضعها إلا وصاحبه يرافقه . بهذا ينبئنا التاريخ وتحدثنا سير الدول التي ارتفع بها منار العدل أو بزغت فيها شموس العلم كيف تمتعت بالنورين وطارت إلى أوج السعادة بهذين الجناحين . حتى إذا أنت حوادث الدهر على أحد الأساسين تهدمه سقط الآخر بأسرع وقت وانحطت الدولة المصابة بفقده إلى أسفل الدركات فأغسق جوها بكثيف من الظلمات وغشيت أبصارها حجب من الجهالة .

وسر ذا جلي فإن العلم إذا انتشر في قوم أضاءت لهم السبيل واتضحت المسالك وميزوا الخير من الشر والضار من النافع فرسخ في قلوبهم ان المساواة والعدالة هما العلة الأولى لدوام السعادة فيطلبونها بالنفس والنفس ، وإن الظلم والجور قرينان للخراب والشقاوة . وإذا رسخت قدم العدالة في أمة تمهدت لها طرق الراحة ، وعرف كل ما له وما عليه فتلهبت فيهم الأفكار وتلطف الإحساس ، وقويت قلوبهم على جانب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم فيدركون لأول وهلة أن لا دوام إلى ما وصلوا إليه ولا ثبات لما تحصلوا عليه إلا إذا تأيد بينهم شأن المعارف الحقيقية وعمت التربية سائر أفرادهم فيقدمون بكليتهم على الأخذ بالأسباب المؤدية لانتشار العلوم وتعميمها على سائر الأنحاء » .

يتضح في المقالة الأسلوب الواضح والمرسل وتجنب المحسنات البديعية والثراء الفكري والأفكار الاجتماعية والسياسية البناءة .

## أحمد أمين « ١٨٨٦ – ١٩٥٤ »

ولد أحمد أمين في القاهرة سنة ١٨٨٦ ، لأبوين ينحدران من أصل ريفي . كان أبوه المتخرج في الأزهر يعمل مدرسا في إحدى مدارس الحي الذي كانت الأسرة تسكنه ويعمل في الوقت نفسه مصححا في المطبعة الأميرية .

التحق أحمد أمين بالكتاب وتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن ودرس على والده التفسير والحديث ، ثم التحق بإحدى المدارس العصرية التي تأسست في القاهرة . ومنذ ذلك الحين بدأت عنده ازدواجية التعليم إذ كان الكتاب ودروس والده يمثلان في حياته الثقافة المحافظة القديمة القائمة على التراث والأساليب التقليدية في التربية والتعليم . أما المدرسة الحديثة أو العصرية فقد مثلت الثقافة الحديثة بمادتها العلمية المنظمة وأساليبها التربوية المتطورة ، ثم جاءت وقائع حياته بعد ذلك لنؤكد هذه الازدواجية ، فالتحاقه بالأزهر يجيء تأكيدا للجانب التقليدي المحافظ في حين يجيء التحاقه بمدرسة القضاء الشرعي وعمله في الجامعة تأكيدا للجانب الحديث المتطور من هذه الازدواجية .

في سن الرابعة عشرة ألحقه أبوه بالأزهر حيث راح يحضر دروس محمد عبده ويعجب فيها كل الإعجاب ، لكنه يترك الأزهر بعد أربع سنوات يقضيها فيه ويعمل مدرسا في إحدى مدارس الإسكندرية وهناك يلتقي بشخصية تترك فيه أثرا عميقا وهو الشيخ « عبد الحكيم بن محمد » أحد مدرسي اللغة العربية فقد تعلم منه أشياء كثيرة وسعت آفاق عقله وحياته .

رجع بعد فترة إلى القاهرة ليدرّس في المدرسة التي درس فيها ثم التحق بمدرسة القضاء الشرعي وتخرج فيها بعد أربع سنوات من الدراسة وأصبع معيدا فمدرسا فيها . والفترة التي قضاها فيها هي من أخصب فترات حياته من حيث الإعداد العلمي والتكوين العقلي . وتعلم في هذه الفترة اللغة الانكليزية وترجم منها كتابا في الفلسفة .

وحين اندلعت ثورة ١٩١٩ م أيدها أحمد أمين وشارك فيها بوسائل مختلفة . وعلى أثر ذلك نقل من مدرسة القضاء الضرعي ليعمل قاضيا في بعض المدن .

وفي عام ١٩٢٦ م دعاه طه حسين للتدريس في كلية الآداب بالجامعة المصرية فقبل الدعوة وتحمس للتدريس الجامعي وأعجب بالأجواء العلمية في الجامعة. وفي هذا الوقت نشط للبحث العلمي فأصدر دراساته الإسلامية القيمة وهي« فجر الإسلام، ضحى الإسلام، ظهر الإسلام، ويوم الإسلام» وهي كتب حظيت بأمية واهتمام بالغين، وأصبحت مصادر ثمينة عن الحياة العقلية في الإسلام.

أتاح له عمله في الجامعة أن يسافر إلى الخارج فزار تركيا وسوريا والعراق والمملكة العربية السعودية وبعض الأقطار الأوربية .

ومن الأعمال المهمة التي قام بها أحمد أمين إشرافه على تحرير مجلة « الثقافة » التي أصدرتها لجنة التأليف والترجمة في عام ١٩٣٩ وأصبحت مدرسة أدبية كبرى يلتقي فيها القراء كل أسبوع بكبار الأدباء أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم والمازني والعقاد وعبد الوهاب عزام .

ظل أحمد أمين يدرس في كلية الآداب حتى أصبح أستاذا ثم عميدا لها وانتدب في الوقت ذاته للعمل بالإدارة الثقافية في وزارة المعارف وكان من جهوده فيها إنشاء الجامعة الشعبية .

وعلى أثر إحالته إلى التقاعد عين مديرا للإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية حيث أنشأ معهد المخطوطات العربية وفي عام ١٩٤٨ م منح درجة الدكتوراه الفخرية وجائزة فؤاد الأول وظل في نشاطه الفكري حتى موته في عام ١٩٥٤ م .

عرف أحمد أمين في حياته الشخصية بالاستقامة في الخلق والتواضع والصبر في العمل وحب العدل والموضوعية وجميعها خصال امتاز فيها أحمد أمين على أقرانه .

يرى باحث معاصر ان أهمية أحمد أمين تتمثل في ثلاثة جوانب متميزة هي:

- البحث العلمي الذي تحققت أعظم نتائجه في الأبحاث التاريخية .
- ٢- الفكر الذي تناول عديدا من القضايا على مختلف المستويات المحلية والقومية والإنسانية والذي كانت له أحيانا انعكاسات إصلاحية في
  محالات مختلفة .
  - الكتابة الأدبية التي يحسب على أساسها ضمن أبناء جيله من الأدباء ،وتشمل المقالة الأدبية والسيرة الذاتية .

فهو في إسلامياته باحث ومؤرخ من الدرجة الأولى « وقد سار فيها وفق منهج علمي محدد التزم فيها بالموضوعية العلمية كأحسن ما يلتزم باحث لقد كان كل همه فيها أن يفر وقائع الحياة العقلية الإسلامية وأن يتخذ وسيلته إلى ذلك التحليل وتتبع العناصر إلى أصولها وانتهاء بها إلى غاياتها » .

أما في الفكر فقد وصفه عدة باحثين بأنه مفكر ورث التراث الفكري للإمام محمد عبده وسعى إلى تطبيق هذا الفكر في مجالات الإصلاح المختلفة .

تعتمد شهرة أحمد أمين الأدبية أساسا على كتابة المقالة الأدبية التي ظل يمارسها فترة زمنية تمتد من عام ١٩١٨ م وتنهي قبيل وفاته عي ١٩٥٨ . نشر مقالاته في « السفور » و « المصور » و « الهلال » ، لكن أكثر المقالات نشر في مجلة « الرسالة » الصادرة في عام وجمع معظم هذه المقالات فيما بعد في كتاب سماه « فيض الخاطر » في عشرة أجزاء .

صدرت مقالات أحمد أمين عن مفهوم خاص للأدب التزم به طوال حياته فقد كان يرى الأدب فكرا ومعنى قبل أن يكون شيئا آخر . يقول في سيرته الذاتية « ... حتى في الأدب أكثر ما يعجبني منه ما غزر معناه ودق مرماه . فيعجبني الجاحظ وأبو حيان التوحيدي وابن خلدون أكثر مما يعجبني الحريري والقاضي الفاضل والصاحب بن عباد وطريقته والعماد الأصفهاني ودرسته ويعجبني المتنبي لولا اغرابه أحيانا وتكلفه والمعري لولا تعاليه وأفضلهما على أبي تمام وتقعره ، ولا يعجبني من البحتري إلا قصائد معدودة ، ولا يهتز لقلبي لأكثر شعر الطبيعة في الأدب العربي لبنائه على الاستعارة والتشبيه لا على حرارة العاطفة .. » . ولهذا نجده في مقالاته يقصد – كما يقول في سيرته – « إلى تجويد المعنى أكثر مما أقصد إلى توبيد المعنى أمثر من تزويق الألفاظ . حتى كثير ما تختل «ضمائري » فأعيد الضمير إلى مؤنث مذكرا وعلى مذكر

مؤنثا ، لأني غارق في المعنى غير ملتفت إلى الألفاظ ، ولا أتدارك ذلك إلا عند التصحيح . وقد يفوتني ذلك أيضا . ولتقديري للمعنى أميل إلى تبسيطه حتى لأسرف أحيانا في توضيحه ، لشغفي لوصوله إلى القارئ بينا ، ولو ضحيت في ذلك بشيء من البلاغة . » .

وعموما يلاحظ على أسلوب أحمد أمين ان العقل يطغى على العاطفة وأنه يتلقى الحياة بعقله وتفكيره ولا يلتهمها بقلبه وشعوره . ويمتاز أيضا بالوضوح في التعبير والدقة في الوصف والإيجاز في العرض ، على طريقة الكتاب الذين يستمدون صورهم من واقع الحياة البسيطة التي يحبونها ، وهو في حرصه على تصوير الواقع لا يتورع عن استعمال ألفظ عامية أو تعبيرات إقليمية .

ان إيمان أحمد أمين بنظرية الفن للمجتمع جعله يصب عنايته أساسا على جانب المضمون في المقال ، ويهتم كل الاهتمام في الوقت ذاته بالوضوح والبساطة في التعبير . من هنا صار همه – كما يقول أحمد حسن الزيات – أن يقرر ويقنع لا أن يؤثر ويمتع ، وفي هذا يبدو عقله أخصب من خياله ، وعلمه أكبر من فنه ، وقد حبب إليه حب الحرية والصراحة إرسال النفس على سحيتها من غير تقييدها بأسلوب معين ، وعرض الفكرة على حقيقتها من غير تمويها بوشي خاص . لهذا لا تروع القارئ منه الصور البيانية الأخاذة أو الأصوات الموسيقية الخلابة ، وإنما تروعه منه المعاني المبتكرة الطريقة والآراء الصريحة الجريئة والشخصية القوية المهيمنة فنحن منه بإزاء عالم يبحث لينتج أو مصلح يصف ليعالج، لا بإزاء مصور يلون ليعجب أو موسيقار يلحن ليطرب ».

أما الأفكار والآراء التي تحملها مقالاته فهي في جملتها أفكار اجتماعية حضارية وتربوية فهو يبدو مهموما بما يرى في المجتمع والأمة من سلبيات وعيوب وممارسات ضارة وفي الوقت ذاته يدعو إلى إشاعة قيم وعادات حضارية صحية ، يكون بها تقدم المجتمع ونهضة الأمة وهو عموما يبدو في تفكيره وطروحاته إصلاحيا وتقدميا في بعض وجهات نظره .

ففي نظرته إلى المرأة يقف مناصرا لها مقدرا أهميتها ودورها في المجتمع لاسيّما في التربية . فالمرأة هبي التي تتولى عملية التربية ، ومن ثم تطبع الناشئة بالطابع الذي تريد . حتى يسمى قلب المرأة « مستودع الذخائر » ويطلق هذا العنوان على مقالة يقول فيها : « أين تضع مستودع الذخائر للأمه ؟ قد تجيب على الفور : انه المطارات ومخازن الأسلحة ومستودع القنابل وما إلى ذلك من أماكن تكدس فيها آلات القتال وأدوات الحرب . إن أجبت بذلك فقد أجبت بالعرض دون الجوهر ، وبالمجاز دون الحقيقة . وقد تتقلسف قليلا ، فتقول : ان ذخيرة الأمة هي جيشها المسلح بعدده وعده ومرانه وتجهيز فنونه وتشكيله . إن قلت ذلك فقد قاربت الصواب ولم نقله وحمت حوله ولم يقع عليه . فما قيمة الذخائر إذا لم نجد رجالا ؟ وما ينفع السيف إذا لم تك قتالا ؟ ان السيف في يد الغر والمحاذق كالقلم في يد الأمي والكاتب . بل ما ينفع الجندي المسلح ، ان لم يكن له بين جنبيه قلب لا يهاب ونفس لا تجزع ؟ الإجابة الحقة هي ان مستودع الذخائر للأمة قلب المرأة ، قلب المرأة هو الجيش الأول الذي لا قيمة لقنابل ولا طيارات ولا غواصات ولا دبابات بدونه ، وإن شئت فقل هو الطابور الخامس الذي لا يوقع الرعب والفزع في قلوب الأعداء شيء مثله . لقد خلقت المرأة من ضلع من أضلاع الرجل ولكن سرعان ما تغير الحال فخلق قلب الرجل من قلب المرأة ... ثم إلى اللبن الذي ترضعه الأم لأولادها ، توعز إليهم الجبن أو الشجاعة بسلوكها ، فإنه هي ربتهم تربية الأرانب فأدفأتهم وأشبعتهم وحاطتهم بكل ضروب العناية ، ولم تسمح لهم بأن يجربوا أو يخاطروا وأن يجازفوا وعامتهم أن لا قيمة للعقيدة بجانب حياتهم ، ولا للوطن بجانب سلامتهم ، فهناك ترى صورة جند ولا جند .... وماتهم من صغرهم على المخاطرة والمجازفة وحدثتهم أحاديث الأبطال وعظماء الرجال ، وعودتهم مكافحة الحياة والتغلب على الصعاب وعلمتهم أن المبادئ فوق رالأشخاص والوطن فوق حياة الأفراد .... فهناك الرجال ، وهناك العزة وهناك الشرف .... » .

كذلك ينظر أحمد أمين إلى الفئات المسحوقة والمحرومة في المجتمع بين العطف والإشفاق فيدعو إلى النظر في أحوالهم والأخذ بيدهم ليعيشوا عيشة انسانية كريمة . يقول في مقالة تحت عنوان « كناس الشارع » : « هذا كناس الشاعر بوجهه الذي علته طبقة من جنس ما يكنس وثيابه الممزقة المتهدلة وبيده مكنسته التي يثير بها الغبار على نفسه وعلى الناس ويبرز من عبه نصف رغيف من الخبز الجاف أعده للأكل عندما يعضه الجوع . وهذا ملاحظه ببذلته التي تشبه الذلة العسكرية وبكبريائه التي تشبه كبرياء الضابط على الجنود وكبرياء الجنود على الباعة المتجولين وبيده عصا من خيزران خفيفة الحمل جيدة اللسع قد أهوى بها على الكناس لسبب لا أدريه فتلقى الكناس ذلك بسكون ظاهر وغيظ مكتوم . قلت ان هذا المنظر ليس وليد اليوم ولا أمس ولكنه وليد قرون وقرون من عهد ان كان مثل هذا الكناس يجر أحجار الأهرام ويرفعها، وعليه مثل هذا الملاحظ يلسعه بالعصا إذا تهاون في عمله أو استراح من كده . لا . ان نظام الطبقات واستبداد الطبقة العليا بالسفلى نظام لم يعد صالحا لهذا الزمان . فالناس سواء في الحقوق والواجبات فحقوق كناس الشارع وواجباته كحقوق رئيس الوزارة وواجباته . إذا إذا قبلنا على مضض هذه الفوارق الشاسعة في الغنى والفقر والمائدة الفخمة الدسمة الشهية المختلفة الألوان والطعوم والكسرة الجافة في عب الناس فلسنا نقبل هذه الإهانة للكرامة الإنسانية وتمريغها في التراب.. لسنا نريد طبقات وإنما نريد ابن الباشا يجلس في الفصل في المدرسة بجانب ابن الكناس يتعلمان معا ويرعاهما المدرس على السواء معا ويؤنب ابن الباشا على ما أخطأ ويشجع ابن الكناس على ما أجاد ويهذبهما معا..»

على ان أحمد أمين ليس في كل مقالاته كاتبا همه الأول الفكرة والتعليم . فقد كتب إلى جانب مقالاته الفكرية مقالات أدبية عني فيها بوصف مناظر الطبيعة وصورها المختلفة ، وما تثير في نفسه من أحاسيس وانفعالات ولو أنه يهتم فيها – إلى جانب ذلك – باستباط أفكار ودلالات فكرية مختلفة من الطبيعة وسورها المختلفة ، وما تثير في نفسه من أحاسيس وانفعالات ولو أنه يهتم فيها – إلى جانب ذلك – باستباط أفكار ودلالات فكرية الربيع انتشت فباحت بمكنونها ... إن كان للحياة سر فالربيع سرها ، أو كان للربيع عمر فالربيع شبابها جاء الربيع فأصبحت الطبيعة ملء السمع ، ملء النوق ، فكأنها أوتار عود لكل حاسة وترها الذي يشجيها ، همس الربيع إلى الأرض بكلمة سحرية فجن جنونها ، فالأغصان تمايلت وتعانقت والزهور تفتحت والطيور غردت حتى كأن الدنيا كلها في عرس بديع . لو مثلنا الربيع بالوان الأزهار لعبا بديعا ، فأحمر قان وأبيض ناصع ، وأصفر فاقع ، ثم نقش جميل ونمنمة كدبيب النمل وهندسة رائعة منسجمة متناسقة يحار فيها الفكر ويهيم بها اللب . تعلم الفنانين فنهم وترقي ذوقهم وتلهمهم الإبداع في التنسيق والإجادة في التنميق ثم هيهات أن يلغوا مبلغ الربيع في فنه وجماله ... فأين التقليد من الإبداع وأين الجسد من الروح ؟ لكر زهرة وحيها ولكل جمال إلهامه ، فبياض يوحي بالطهر والصفاء وحمرة توحي بالقوة والعظمة إلى ما شئت من دلالات الجسد من الروح ؟ لكر زهرة وحيها ولكل جمال إلهامه ، فبياض يوحي بالطهر والصفاء وحمرة توحي بالقوة والعظمة إلى ما شئت من دلالات وأدركه النحل فارتشف ، وأدركته الأعصان فتمايلت وتعانقت وأدركه العشاق فهاموا به وتهادوا به ، ورمزوا لعواطفهم به . عطرت الأزهار الجو وأدركه النعش النفوس وأحيت الأمل .. » .

وهكذا نجد في المقالة لغة أدبية تزخر بالصور الجميلة ويغلب عليها الخيال .

ولأحمد أمين بعد ذلك كتاب في أدب الوصايا « إلى ولدي » عرض فيها أفكاره ومواعظه في أسلوب الرسائل ولا نستطيع أن نخرج هذا الكتاب من دائرة الأدب بحجة تضمنه أسلوب الموعظة في ثوب تقليدي كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين .

صحيح ان الكتاب يتضمن مواعظ ونصائح أخلاقية واجتماعية مستقاة من تجارب أحمد أمين الشخصية ، وملاحظاته الخاصة غير ان الكتاب يتضمن في الوقت ذاته شيئا من الخيال المتمثل في زعم الكاتب في المقدمة ان الرسائل إنما كتبها إلى ابنه وابنته عندما كانا يكملان تعليمهما في أوربا . ولهذا لا يرى القارئ – حين يقرأ الكتاب – المواعظ موجهة إليه مباشرة أو ان الخاطب يخاطبه كما يخاطب المدرس تلاميذه وإنما يرى ان الرسائل والمواعظ موجهة إلى غيره فيكون لها عند ذاك تأثير فيه كتأثير الأفكار في النصوص الأدبية . والكتاب حافل بأحاديث ونصائح قيمة وممتعة في أدب النفس والأخلاق والاجتماع ، ولعل أهمها ما يدور على الذوق والجمال « ان الذوق عمل في ترقية الأفراد والجماعات أكثر مما عمل العقل . فالفرق بين إنسان وضيع وإنسان رفيع ليس فرقا في العقل وحده ، بل أكثر من ذلك فرق في الذوق ، ولئن كان العقل أسس المدن ووضع تصميمها فالذوق جملها وزينها ، وإن شئت أن تعرف قيمة الذوق في الفرد فجرده من الطرب بالموسيقي والغناء وجرده من الاستمتاع بمناظر الطبيعة وجمال الأزهار وجرده من أن يهتز للشعر الجميل والأدب الرفيع والصورة الرائعة .. وجرده من الحب في جميع أشكاله ومناحيه ، ثم انظر بعد ذلك ماذا عسى أن يكون وماذا عسى أن تكون حياته » .